

تطور مضامين الخطاب السردى للرواية الجزائرية الحديثة

أ.د: عبد القادر توزان

جامعة الشلف

(1) الخطاب السردى الجزائري باللغة العربية، النشأة و التطور:

للأدب الجزائري جذوره المتأصلة أدبا و أدباء، يثبت ذلك تماسك حلقة العربية، و صمود شعب ظل يتكلمها طيلة مدة تربو على مئة و ثلاثين عاماً، أمام أخطر استعمار حديث هو الاستعمار الثقافى الفرنسى. و إلى زمن قريب قبل دخول الاستعمار، عرفت الجزائر مفكرين و أدباء، آخرهم: سي عثمان بن حمدان خوجة (1733م-1845 م) صاحب " المرأة " و "أتحاف الأدباء" و "المذكرات". ترجمت مؤلفاته إلى الفرنسية التي كان يحسنها.¹ وكذلك الطاهر بن سلام الشاعر و الناثر الذي ترك مؤلفات عديدة، كان لها صدى في إفريقيا و فرنسا. ترجمت مؤلفاته أيضا إلى الفرنسية.

(ا) النشأة:

ظل الأدب الجزائري منذ دخول الاستعمار إلى نهاية الحروب العالمية الأولى، أدبا تقليديا تسيطر عليه النزعة الدينية. فموضوعاته مكرورة ولغته بسيطة لا تخلو من الأخطاء النحوية أو الإملائية أحيانا. أما أسلوب هذه المجموعة من الكتاب فقد ظل تقليديا، ضعيفا، "فيه تكفل و تعمل، يكثر فيه السجع و الصور الجامدة المخطوطة و الروح الفقهيّة و الصياغة الركيكة فيما عدا النادر القليل".² و يتحدد تاريخ نهاية هذه المرحلة بظهور مجموعة من الصحف ك"الإقدام" و "الفاروق" و "المنتقد"³ بدأوا ينشرون فيها أشعارهم و مقالاتهم. و هم بذلك يبشرون بظهور حركة جديدة، و هي حركة الإصلاح، نذكر من بينهم : عاشور الخنقي، عبد الرحمن الديسي، أبو اليقظان، الطيب العقبي محمد اللقاني، السعيد الزاهري، الهادي السنوسي، الجنيدى، أحمد مكى، وغيرهم من الكتاب. بدأ

أصحابها يتخلصون من الماضي المعروف بكثرة السجع و الاستشهاد بالشعر و العبارات المقصودة في ثنايا الكتابة، و العناية بالشكل أكثر من المضمون.⁴

و بانتهاء هذه المرحلة، تبدأ المرحلة الحاسمة من تاريخ النهضة الأدبية بالجزائر. و تعد سنوات (1925-1926م)، التاريخ الفعلي لانبعث هذه النهضة بظهور "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" و تأسيس جريدة "الشهاب" سنة 1936م.⁵ و لعل من أول الدارسين لهذا الأدب، عثمان الكعاك صاحب كتاب "بلاغة العرب في الجزائر" 1925م، جاء فيه: "و كيف لا تنشط العقلية الجزائرية الخاملة، إذا عملت أن وراءها تاريخا يضاهي تاريخ أعظم الأمم، و أن لها أدبا من أجمل ما جادت به قريحة بني يعرب بن قحطان".⁶

و قد لا يختلف الدارسون حول أسباب ظهور هذه النهضة الأدبية بالجزائر، فالحربان العالميتان و ما خلفتاه من استعمار و دمار، كان لهما أبلغ الأثر في دفع الحركة الجديدة و تطورها بسرعة مذهلة. كما أن استيقاظ الشعوب بكفاحها و تحقيق استقلالها، كان له دوره الفعال في تحفيز الجماهير على النضال بجميع الأسلحة. ابتداء من الكلمة إلى البندقية. ويضاف إلى هذه الأسباب، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بث الوعي القومي، وإنشاء المدارس، و محاربة الطرقية و الشعوذة التي كانت تسيطر على عقلية الشعب الجزائري. هذا إلى جانب احتكاك النخبة المثقفة بإخوانهم في الجماعات العربية والشرق العربي، و بروز الحركة الوطنية الجزائرية بين المهاجرين في فرنسا و الطبقة المحرومة بالجزائر.⁷ و قد تجلت هذه النشاطات الأدبية و الفكرية، خاصة في مجلتي الشهاب و البصائر اللتين انضم إليهما إلى جانب مؤسسيها الكبيرين عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي، جماعة من المثقفين الشباب أمثال رضا حوحو، عبد الرحمن شيبان، احمد بن عاشور و غيرهم من الكتاب.

(ب) التطور:

و تعتبر السنوات الأولى لهذه المرحلة (ابتداء من سنة 1925م إلى سنة 1943م)، حركة انتقالية من الماضي التقليدي إلى الجديد المتطور. إذ أنه في هذه المرحلة "لم تنتج معالم النشر الجزائري تماما، حيث ظلت كتابات العقبي ر الإبراهيمي والسعيد الزاهري ر الميلي و غيرهم تقليدية إلى حد ما. و الجديد في هذه الكتابات، إنما هو ظهور شخصية الكاتب. واتضح موقفه العربي الإسلامي دفاعا عن العروبة والإسلام⁸. إلا أن أسلوبه ما لبث أن بدأ يتحرر فيه من القوالب المحفوظة، ويبتعد عن التكلف ويتخلص من السجع إلا ما جاء فيه عفو خاطر. كما مال إلى السهولة و البعد عن التعميم، وقد تحررت لغته من تلك الألفاظ الأعجمية القاموسية العربية، وأصبح هدف الكاتب هو التعبير عن أفكاره في وضوح، دون بهرجة أو تتميق أو زخرفة لفظية لا تحوى معنى جيداً أو رأياً مبتكراً⁹.

أما سنوات (1943م و ما بعدها) فنجد هذا الأدب، و بالخصوص النشر فيها قد خطا خطوة أخرى إلى الأمام. ويتحدد هذا التطور بظهور جريدة البصائر في سلسلتها الثانية، إلى جانب جريدة "المنار" اللتين لعبتا دورا أساسيا لا في الدفاع عن عروبة الجزائر و إسلامها و حق الشعب الجزائري في الحرية و الاستقلال فحسب، بل و في تطوير النشر الجزائري الحديث¹⁰. و الدارس للإنتاج الأدبي المنشور على صفحات هذه الجرائد، يلاحظ أن اهتمامهم بالنشر كان قليلا في البدايات الأولى من هذه المرحلة. و لا يبعد أن يكون الإنتاج الشعري الغالب على صفحات تلك الجرائد امتدادا طبيعيا للتيار التقليدي للمرحلة السابقة لكونه يتماشى مع ميولهم، ثم لأن أغلبيتهم كانت تنتمي إلى التيار السابق. فالذين طوروا فنون النشر، هم كتاب من الشباب كانوا على معرفة بالثقافة الأجنبية. من هؤلاء: رضا حوحو و حنفي بن عيسى وغيرهما ممن كانوا يحسنون اللغات الأجنبية. ويتميز هؤلاء و غيرهم عن كتاب المرحلة السابقة بأن بدأوا يتخلصون من أكثر المحتويات القديمة لينصب اهتمامهم على المضمون دون الشكل، فتحرر أسلوبهم، و أصبح واضحا سريعا يباشر المعنى بعيدا عن أي غموض أو التواء.

و بانتهاء المرحلة الثانية، تبدأ المرحلة الثالثة التي عرفت كتابات أكثر أصالة و عمقا، و تعتبر بحق، مرحلة التركيز و التخطيط و التققيه. ففيها ظهرت بذور القصة القصيرة، و ارتفع أسلوب

المقالة فأصبحت تتميز بطابعها الفني المعروف، كما ظهر إلى جانبها، الأسلوب النثري الجديد المسمى بالخاطرة أو الصورة الأدبية في شكل خفيف جذاب.¹¹ ومن رواد نشأة القصة الجزائرية الحديثة : محمد العابد الجيالي، أحمد رضا حوحو، أحمد بن عاشور، محمد شريف الحسيني، عبد المجيد الشافعي... وغيرهم من الكتاب.¹²

و اختلف الدارسون حول ظهور هذه الأجناس الأدبية النثرية، فمنهم من يرى أن تطورها في النثر الجزائري باللغة الفرنسية، و انعدامه في النثر المكتوب باللغة العربية، يعود إلى أن هؤلاء تلقوا ثقافة شرقية تقليدية من جامعات: الزيتونة بتونس و القرويين بفاس و الأزهر بالقاهرة، فلم تتح لهم الاطلاع على أجناس الآداب الغربية.¹³ غير أن هذه الأجناس من مسرح و قصة و مقالة، عرفت بذورها الأولى مع بدايات الحرب العالمية الثانية. ففي الوقت الذي بدأت فيه أقلام النخبة الجزائرية من المثقفين ثقافة فرنسية، تنتج روايات وأشعاراً أكثر مما تتسم به الالتزام بالقضايا الوطنية، ظهرت إلى جانبهم مجموعة من الكتاب باللغة العربية عبروا في كتاباتهم عن واقع الشعب ليخوضوا في فنون النثر الحديثة من قصة طويلة وقصيرة، و مقالة (أدبية وصحفية و نقدية)، و مسرح. ولعل الذي ساعدهم على ذلك اطلاعهم على الآداب الغربية التي لم يحرموا أنفسهم من الإفادة من أدبها.

أما الموضوعات التي تناولها هذا الأدب. فيدور محورها عامة، حول الوعظ والإرشاد، فتميزت بطابعها الديني والأخلاقي. كما عبرت عن واقع البلاد بما فيه من متناقضات، وما يعيشه من عزلة وحرمان. إلا أن الواقعية التي أتصف بها هذا الأدب، لم تسد إلا قليلا لما تحمله من بذور الحقد و الطبقية و ما فيها من وصف مادي للحياة الاجتماعية المخيفة التي يحياها الملايين من السكان. ولذلك لم يعالج النثر في تلك الفترة، إلا الموضوعات المادية الصميمة أو الحيوية الصارخة، كالفقر والتعليم و الحرية و الهجرة التي عانى الشعب منها كثيراً في ضل الاحتلال.¹⁴ ومن أشهر كتاب هذه المرحلة: أحمد رضا حوحو، الجنيد خليفة، عبد الله ركيبي، أبو العيد دودو، حنفي بن عيسى، أبو القاسم سعد الله، وعثمان سعدي. ظل هؤلاء الكتاب (وغيرهم ممن لم نذكر،) يعالجون قضايا الحرية والعروبة و

الإسلام و الشخصية الوطنية و الحياة الاجتماعية بدافع النضال في مكافحة الاستعمار. وظلت كتاباتهم لا تنفك تسير على خط واحد، إلى أن توجت الثورة بالاستقلال، الذي أوجد جيلاً جديداً، استطاع أن يطور هذا الأدب نثراً وشعراً. ففي مجال النثر، وفي الحديث عن الرواية بالخصوص، نجد روائيين مثل: الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوجه، و محمد عبد العالي عرعار، أكثر تكيفاً مع تطورات المجتمع. فبعد أن كانوا يستلهمون موضوعاتهم من واقع الثورة التحريرية، أصبح البطل الجديد في عالمهم بطلاً يحافظ على مكاسب الثورة، و يناضل من أجل ترسيخ المبادئ الاشتراكية في ذلك الحين في أسلوب واقعي نقدي و حاد.¹⁵

و إلى جانب الرواية، نلاحظ كثرة كتاب القصة القصيرة و المقالة النقدية و الأدبية. و اهتمت مضامين القصة القصيرة بمعالجة القضايا الاجتماعية المختلفة، كالهجرة إلى فرنسا، و من الريف إلى المدينة، و كذلك مشاكل البيروقراطية و الفوارق الطبقيّة باختلاف أشكالها. كل ذلك في إطار الإيديولوجية الاشتراكية التي اختارتها البلاد، كما عبروا أحياناً عن روح الاتجاه القومي العربي، و مشاكل الأمة العربية المعاصرة.¹⁶ و قد نجد أحياناً بعض موضوعات هذه القصص ما زالت إلى أحداث ما قبل الاستقلال.¹⁷ و قد عبر بعض

الدارسين عن هذه الظاهرة، بأن المتصفح لهذا الإنتاج الأدبي، لا يلبث أن يشتم بين صفحاته رائحة البارود.¹⁸ غير أن الكثير منها، بدأ يتسم بروح فنية عالية، و بنزعه جديدة نحو التطور و الثورة على المعتقدات السلبية البالية.

11- كما أسس حزب "اللجنة المغربية" التي تعتبر أول منظمة سياسية في تاريخ العرب الحديث، ولم يمهلهما الاستعمار طويلا، فشتت أعضاها و قضى عليها بذلك في مهدها. ينظر: أبو القاسم سعد الله، الجزائر والقومية العربية، مجلة الأدب، ع7، بيروت 1966، ص6-10.

2- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م، ص6-10.

3- ظهرت عدة صحف و مجلات مع بداية القرن العشرين. اشترك بالكتابة فيها بعض المستشرقين و إلى جانبهم بعض الجزائريين، كان بعضها ناطقا باللغة الفرنسية و بعضها الآخر باللغة العربية. ولم تكن اللغة عائقا أمام الاتجاهات الوطنية التي تحلى بها الجزائريون. نذكر من بينها: جريدة "النصيحة" (1904م)، "كوكب أفريقية" (1907م)، "الجزائر" (1908م)، أسسها المرحوم عمر راسم، "الحق ألوهاني" (1911م)، ذو الفقار" 1913م (جريدة عربية اشتراكية نقدية)، تلتها قبل الحرب العالمية الأولى مجموعة أخرى من الجرائد: "الفاروق" و "المنتقد" ثم "الإقدام" (أسسها الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر ليضيف إليها بعد العدد 36 وجها عربياً)، راجع: صالح خرفي المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1983، ص 63-65.

4- أبو القاسم سعد الله، رضا حوحو و نضال الكلمة، الآداب، ع12، بيروت، 1956، ص 55-56.

5- Aida Bamya : La littérature algérienne de langue arabe; In :Europe; No 567,568 ; (juil. Août) ; France.1976 ;P3 : ينظر:

-حسان الكاتب،⁶ من أدب الكفاح في المغرب العربي، الفكر، ع12، تونس، 1976، ص14.

7- محمد مصاييف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م، ص 114 كذلك: محمد مصاييف، النثر الجزائري الحديث قبل الاستقلال وبعده، الثقافة، ع8، دمشق 1979م، ص6.

8- محمد مصاييف، النثر الجزائري الحديث، ص6.

9- عبد الله ركيبي، ص6.

-محمد مصاييف، ص6.¹⁰

11- أبو القاسم سعد الله، ص56.

12-محمد مصاييف، ص 6.

13--ينظر:

Mustapha Lacheraf ; l'Avenir de la culture algérienne ; In : Les temps modernes ; No 209 Octobre ; Paris 1963 ; p.724.

أبو القاسم سعد الله، البطولة في الأدب الجزائري مجلة الآداب، ع4، بيروت، 1959م، ص34.¹⁴

راجع بهذا الصدد: رواية اللّاز للظاهر وظاهر، ربح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة "الذي لا تذره الرياح" لمحمد عبد العالي
عرعار

راجع: محمد مصايف , النثر الجزائري الحديث, ص41-55. ¹⁶

- ¹⁷ Aida Bamy ; p.44

عبد الله ركيبي، أرواح ثائرة، دط، القاهرة، القاهرة، 1962م، ص24. ¹⁸